Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيشْتكى الفقرَ غادينا ورائحُنا ونحن نمشى على أرضٍ من الذهبِ
والقومُ فى مصرَ كالإسْفِنْج قد ظفرتْ بالماء لم يتركوا ضَرْعًا لمُحْتلبِ

فبينما يتجرع حافظ وأبناء مصر البؤس المرير ينعم الإنجليز بخيراتها وطيباتها، بل إنهم لم يتركوا فيها ثمرًا إلّا نهبوه ولا ضرعًا إلا احتلبوه، وما مثلهم إلّا كمثل الإسفنج يمتص كل ما حوله من ماء فى أى وعاء، غير مبق منه بقية. ويكون من حظه وحظ مصر أن يُحال إلى المعاش وأن يخرج من خدمة الدولة والجيش فى ظل الاحتلال الإنجليزى.

ويلوِّح لحافظ الخديو عباس ومعه حواشيه أن يقرب منه، ويأبى مُفضيًا إلى بؤسه وإلى أمته، واقفًا فى مقدمة صفوفها ينازل الإنجليز، وكأنما سيفه لم يسقط من يده بخروجه من الجيش، وغاية ما فى الأمر أنه استبدل به سيفًا بل سيوفًا أخرى قاطعة من أشعاره. وكان أول حادث خطير نازل فيه المحتل نزالاً عنيفًا حادث دنشواى لسنة ١٩٠٦، فإن خمسة من الانجليز قصدوا هذه القرية لصيد الحمام بها، وتعرَّض لهم بعض أهلها، وأصيب أحدهم بضربة شمس إصابة أفضت إلى موته، فثار كرومر عميد الإنجليز فى مصر، وعقد لهم محكمة لمحاكمتهم، فقضت بإعدام أربعة شنقا وجَلْد سبعة بالسياط وحَبْس ثمانية مددًا مختلفة، ونُفِّذَ الإعدام والجلد بمرأى من أهل القرية مبالغة فى التنكيل والعقاب. وغضب المصريون غضبًا شديدًا لهذه الفاجعة، وفى مقدمتهم زعيمهم حينئذ مصطفى كامل وكتّاب الصحف، وتبارى الخطباء فى المحافل يصوّرون هذه الجريمة الوحشية الفظيعة، واستشاط حافظ غضبا، وأخذ يجسِّدها فى قصائد رائعة، بمثل قوله ساخرًا من الإنجليز سخرية لاذعة:

أيها القائمون بالأمرِ فينا هل نسيتم ولاءَنا والوِدادا
خَفِّضوا جيشكم وناموا هنيئا وابتغوا صَيْدكم وجُوبوا البلادا
وإذا أعوزتْكمُ ذاتُ طوقٍ بين تلك الرُّبا فصِيدوا العِبادا
إنما نحن والحمامُ سواءٌ لم تغادر أطواقُنا الأجيادا
ليت شعرى أتلك محكمةُ التَّفْـ ـتيشِ عادتْ أم عهد نِيرونَ عادا